عمود الشعر في النقد العربي القديم

د. منصوري عبد الوهاب

جامعة سيدي بلعباس

ولّد الصراع الأدبي الجمالي الذي حصل بين القدماء شعراء وأنصارا، عدّة عائدات على النقد العربي القديم، يمكن ذكر بعضها (اللفظ والمعنى، الطبع والصنعة القدماء والمحدثون، السرقات الشعرية.) إلاّ أن الأصل الذي نراه أساسيا ومرتكزا لهذه القضايا، يكمن في قضية (عمود الشعر). فقد وردت كلمة عمود في المعاجم العربية بمعان مختلفة، ففي لسان العرب لابن منظور، تشير مادة (ع،م،د) إلى (قوام الشيء)[1] وهي عند الزمخشري ((عميد قومه وعمود حيّه، أي قوامهم قالت أخت حجر بن عدي الكندي عمة امرئ القيس ترثي حجرا:

فإن تهلك فكل عمود قوم ** من الدنيا إلى هُلْكٍ يصير))[2]

فالعمود هو الركيزة والأساس في كل شيء، بدونه يقع الخلل ولا يستوي أي بناء. فالعرب لا يبتعدون مع عمود الشعر عن هذه الدلالات فعندما يذكرونه يشيرون في غالب الأحيان إلى ((مجموعة القيم الجمالية والتقاليد الفنية التي درج الشعراء العرب على الالتزام بها والسير على نهجها في بناء القصيدة. وهي تقاليد أخذت شكلا جبريا، بحيث عُدّ الخروج عليها نوعا من البدعة، وضربا من الإعراب والإحالة...))[3] وهي القواعد الفنية التي استُنبطت من القصيدة النموذج.

ارتبطت قضية عمود الشعر بالصراع الذي كان بين أبي تمام والبحتري حيث إن الكلام عليه لم يظهر إلاّ عندما كان الكلام يدور حول

الشاعرين وبخاصة في كتاب الموازنة للآمدي وكتاب الوساطة للجرجاني ثم أخيرا عند المرزوقي في مقدمة شرح ديوان الحماسة.

فالحديث عن عمود الشعر لا يمكن أن يفهم إلا في إطار الصراع الحاد بين القدماء والمحدثين. إذ أن عمود الشعر كان يسعى إلى الحد من طموح المحدثين من جهة، وربط الشعرية العربية بالقدماء ولشعراء الجاهلية والإسلام تحديدا.

على الرغم من وجود إشارات عابرة وسريعة حول المعنى العام لما أصبح يسمّى بعمود الشعر في كتابات كلّ من الآمدي والجرجاني، إلاّ أن مصطلح "عمود الشعر" ظل يتأرجح بين الملاحظات العامة والآراء الانطباعية إلى أن جمع المرزوقي أشتاته ولملم قواعده وأخرجه إخراجا لم يعد في حاجة بعده إلى إعادة طرحه للنّقاش.

البدايات الأولى لعمود الشعر:

تحدث كثير من النقاد الأوائل في إشارات عامة لما ينبغي أن يلتزم به الشعراء في قصائدهم وقد لا يتخذ التسمية نفسها فقد أطلق عليه ابن قتيبة في مقدمة الشعر والشعراء ما سماه بناء القصيدة ((وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين))[4] والأمر نفسه يشير إليه ابن طباطبا عند حديثه عن مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل ما قالته العرب[5] وهذه إشارات عامة لما سيضطلع به عمود الشعر.

يعزى الاستعمال الأول لمصطلح عمود الشعر إلى الآمدي، وذلك في أثناء تفضيله للبحتري، وبخاصة حين رأى ((أن البحتري أعرابي الشعر مطبوع،

وعلى مذاهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف))[6] فعمود الشعر عنده يكمن في طريقة العرب في أداء الشعر وإتباع مذاهب الشعراء الأوائل وأساليبهم. ومن ثم كان إتباع طرائقهم والالتزام بها، السبيل الوحيد لمنح الشاعر صفة الشعرية.

يتحدث الآمدي عن محاسن الكلام الذي يصير به الكلام شعرا، فهو لا يخرج ((عند أهل العلم إلا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له، وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف.))[7] ولا شك أن هذه القواعد مستنبطة من الشعر العربي القديم. على هديه رسم العمود وضبط ما ينبغي أن يكون عليه الشعر لئلا يبتعد عن طريقة العرب وأساليبهم ((في اللغة، كاستعمال اللفظة بالمعنى الذي توافق عليه العرب، وعدم إحالة اللفظ عن وجهه، واجتناب الإغراب والتعقيد والمعاظلة والحوشي والعويص ــ أساليب العرب في البلاغة والبيان، كحسن الترتيب والتناسب واستعمال الاستعارة الموافقة، وتحاشي الحذف بلا مسوّغ ــ وأساليبهم في اختيار الصور الشعرية ــ وأساليبهم في إقامة الوزن الشعري.))[8] ذلك هو طريق الآمدي الواجب إتباعه، لمن أراد تحقيق الشعرية. وكأنه لا يرى إلا طريقا واحدا التزم به الأوائل ومكنهم من التميز شعرا وما على الشعراء إلا أن يسلكوا الدرب نفسه، وإلا عدوا متمردين، لا يرى في شعرهم ما وصل إليه الأوائل.

يشير القاضي الجرجاني أيضا إلى أن العرب، إنما كانت ((تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن، بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته،

وتُسلِّم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته.))[9] وذلك لا يتنافى مع طريقة العرب في الإبداع، فعناصر الشعر الجيّد التي تفاضل بين الشعراء وتقدم وترتبط بدرجة التزام الشعراء بهذه العناصر أو الابتعاد عنها، وهي عنده: شرف المعنى وصحته، جزالة اللفظ واستقامته، الأصالة في الوصف، المقاربة في التشبيه، الغزارة في البديهة، كثرة الأبيات السائرة والأمثال الشاردة.

تلك هي عناصر عمود الشعر؟ عند القاضي الجرجاني وإن لم يصرح بها مباشرة.

لا أحد إذن من النقاد أعلن صراحة صياغة نظرية عمود الشعر، صياغة كاملة، أو بسبب الظروف التي لم تكن قد تهيأت بعد، لمثل هذا العمل، فالذي دفع مثلا ((الآمدي والقاضي الجرجاني إلى تناول عناصر العمود هو قضية الشعر المحدث عامة. كانت الفرصة سانحة للتنظير للعمود، ولكن وظائف الإنصاف والدفاع والردّ هي التي طغت على الخطاب النقدي عند نقاد الشعر المحدث. فالصفة العملية قد أبعدتهم عن الطابع التنظيري الفلسفي للقضايا التي عالجوها))[10] وهو ما منعهم من الانطلاق من تصور دقيق للنظرية ومعرفة بأبعادها التي يحتاج صاحبها إلى وقت يسمح له بالتأمل والإطّلاع بعيدا عن الخصومة وما يصاحبها من هوى وتحيز، تمنعان الناقد من الوصول إلى ضبط آرائه وأفكاره ضبطا يتماشى مع الموضوعية، حيث من المحال ((التحدث عن الشعر العربي على أنه ذو عمود ثابت أو أنه يقوم على طبع واحد فللشعر طباع يصعب حصرها وله أعمدة تتنوع وتتشكل، وقد استعصت على

تصنيفات الدارسين، ويكفي أن نتذكر طبقات ابن سلاّم الجمحي التي بلغت عشرين طبقة ولم تف يسد غرض الناقد فأدخل بينها تصنيفات أخرى من شعراء القرى وأصحاب المراثي، ولا ريب أن هذا يعني تعدد الطباع وتنوع الأعمدة مما يلغي فكرة وجود عمود واحد أو طبع ثابت في الشعر العربي))[11] مما يدل على أن الشعر العربي إبداع متجدد لا يمكن حصره في قوالب ومطالبة الشاعر أن يبتدع وفقها لا يحيد عنها أبدا.

المرزوقي وعمود الشعر:

لم يبدأ المرزوقي معالجته لعمود الشعر من فراغ وإنما كان مطّلعا على معظم ما قيل قبله، فقد صاغ تصوره من خلال استيعابه لآراء سابقيه صياغة مكتملة وكان يرى أهميتها وحاجة كل من الناقد والشاعر إليها فمعرفتها به تعين الشاعر على الإبداع المتميّز ومعرفة الناقد بها تعينه على تمييز الأشعار والمفاضلة بينها ((فالواجب أن يُتبَيَّنَ ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب، ليتميّز تليد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض من الحديث، ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم إقدام المزيّفين على ما زيّفوه، ويُعلم أيضا فرق ما بين المصنوع والمطبوع وفضيلة الأتيّ السّمج على الأبيّ الصعب))[12] ولا يتحقق في النص ذلك إلا بسبع صفات ((شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف (...) والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما))[13] وبذلك عدت صياغة المرزوقي وافية لخصائص الشعر

الجيّد. إذ حوى كلام المرزوقي سبعة بنود هي عنده العمود: المعنى، اللفظ، الوصف، التشبيه، النظم، الاستعارة، علاقة اللفظ بالمعنى، وهذه البنود يمكن أن تكون في أي كلام شعرا كان أم نثرا جيّدا كان أم رديئا ولذلك فالأوصاف المصاحبة لهذه البنود هي الأساس وهذه الأوصاف هي التي تحقق الشعرية تميّز الشاعر عن غيره، لذلك جعل المرزوقي كل بند مصحوبا بوصف ملازم له:

- فالمعنى يشترط فيه الشرف.
- واللفظ يشترط فيه الجزالة والاستقامة.
- والوصف يشترط فيه المقاربة.
- والنظم يشترط فيه التحام أجزائه.
- والاستعارة يشترط فيها مناسبة المستعار منه للمستعار له.
- وعلاقة اللفظ بالمعنى يشترط فيها المشاكلة.[14] أصبح واضحا أن عمود الشعر هو هذه القواعد الشعرية التي يُحاكم من خلالها على تفوق الشاعر أو إخفاقه. لكن هل من الضروري أن تجتمع هذه الصفات كلها في الشعر حتى نسمه بالجيد؟

إن المرزوقي لا يلزم الشعر أن يضم العناصر السبعة مجتمعة كلها، بل يعترف أن مقياس الجودة راجع إلى قدرة الشاعر على تحقيق أكبر عدد من هذه الصفات ((وهذه الخصال عمود الشعر عند العرب، فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم، والمحسن المقدم. ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان، وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن.))[15] فتصوره إذن يختلف عن تصور الآمدي اختلافا نسبيا.

بقيت الإشارة في الأخير إلى أن التواصل بين مصطلحات التراث العربي القديم ومستجدّات الشعر العربي يقتضي ((تجاوز حرفية المصطلح القديم أو إعادة تشكيله كي نقدم رؤية جديدة ترقى إلى مستوى القصيدة المعاصرة التي حملت بين طياتها سمات هذا العصر بزخمه الثقافي وتعقيده الحضاري وعمقه الفلسفي وتجسدت فيه الإيحاءات والرموز والصور المتلاحقة التي تجعل الناقد يلهث خلفها كي يحافظ على البقاء وإثبات الذات إلى جانب مراعاة عدم الانقطاع عن التراث كي لا تسقط الهوية التي حملها العربي آلاف السنين))[16] فلا يمكن أن نحاكم شاعر اليوم لأنه لم يتبع الأوصاف التي ذكرها النقاد قديما أو عدل فيها، فكل شاعر يمتلك عموده الخاص.

الهوامش:

[1] – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997.

[2] –الزمخشري، أساس البلاغة، تح عبد الرحيم حمود، دار الكتب المعرية، مصر، 1953، ص.313

[3] – كمال عبد العزيز إبراهيم ، قراءة في مقدمة المرزوقي لشرح الاختيار، جنور، ع22، س9، ص.121

[4] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح مفيد قميحة وَمحمد أمين الضنّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، 21/1

[5] – ينظر ابن طباطبا، عيار الشعر، تح عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، 1982، ص. 13

[6] –الآمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تح محمد محي الدين عبد الحميد، د.ت، ص. 11

[7] –الآمدي، الموازنة،، ص. 380

[8] – مصطفى الجوزو، نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)، نظريات تأسيسية ومفاهيم ومصطلحات، دار الطليعة، لبنان، 2000، 2/ 59

[9] –القاضي عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البيجاوي، المكتبة العصرية، لبنان، د.ت، ص.33

[10] –توفيق الزيدي، عمود الشعر، في قراءة السنة الشعرية عند العرب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993، ص.57

[11] – عبد الله محمد الغذامي، العمودية والنصوصية في النقد العربي، النقد والنقاد، المنهل، جدة، العدد السنوي الخاص، 1996، ص.134

[12] – المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تح غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003، 10/1

[13] –المصدر نفسه، 10/1

[14] –ينظر عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، مصر، 2000، ص.344

[15] –المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، 12/1

[16] –عبد الله الغذامي، العمودية والنصوصية في النقد العربي، المنهل النقد والنقاد، ص. 154–155